في إمكانية الهرمينوطيقيا القرآنية

الدكتور سيدموسى ديباج*

استاذ مساعد بجامعة طهران

(۳۰۷-۳۲۵)

تاريخ الاستلام: ۹۱/۰۱/۲۹؛ تاريخ القبول: ۹۱/۰۶/۱۴

الملخص

هل هناک علاقة بين القرآن الكريم، كلام اللّه المُنَزَّل على سيدالمرسلين وكتابه لكافة المسلمين، وعلمِ الهرمينوطيقا بمعناه العام، هذا العلم الذي يتناول التفسير وإمكانية التفسير؟ فمن خلال هذه الدراسة نجيب عن هذا التساؤل؛ فإذا كانت الاجابة بنعم، وسلّمنا أنّ ثمّت علاقة وطيدة بين القرآن وتفسيره، فهل لنا أن نقول: إنّ هذه الهرمينوطيقيا، أي: فهم كلاماللّه وتفسيره، من خصائص القرآن وحده؟

وعندئذ علينا أن نبحث عن مكانة هذه الهرمينوطيقيا القرآنية الخاصة في العلوم المتعلّقة بالقرآن الكريم.

الكلمات الدليلية: القرآن، الهرمينوطيقا، التفسير،

* E-mail: dibadj@hotmail.com

Archive of SID

www.SID.ir

المقدّمة

يُعْتَبَرُ القرآن نصّا دينيّا وهو خاضع كغيره من النصوص لتقنيّة التفسير والتأويل ولكن وفق معايير وضوابط خاصّة. ومن أجل إيضاح الفكرة يتحتّم علينا القول بأن الهرمينوطيقيا القرآنية هي ـ قبل كل شيء ـ طريقة للتفسير الشامل، حيث يمكن أن نجدها مكنونه على نحو الإجمال في التفاسير الموجودة. وهذه التفاسير التي ظهرت حتى الآن للكشف عن مفاهيم القرآن، واستوعبت القرآن كله، أو جزءاً منه، دليلٌ بيّنٌ على إمكانية فهم القرآن وتفسيره. إذن فعلم الهرمينوطيقيا ليس إلا تبيينا للضوابط والشروط التي يجب أن تتوفّر في تفسير القرآن الكريم، وهذا ما تعبر عنه التفاسير الموجودة بوضوح.

إنّنا واقفون على أنّ النص له مفهوم أوسع من مصاديقه في العلوم القرآنيه كما أنّه أوفر وأكثر مصداقية ممّا نلمسه في العلوم الانسانيه.[1] فالعلم الهرمينوطيقي القرآني يتضمن تبيين حدود التفسير، ومستلزماته، والتطورات التي مر بها، وإمكانية التوسّع في التفاسير القرآنيه. فهو لايقتصر على التفاسير الفقهية أو الكلامية أو حتى الفلسفية للكتاب العظيم المقدس فحسب، بل له علاقة بجميع نشاطات الإنسان العلمية والفكرية في ميادين الفن والثقافة والسياسة والعلوم الطبيعة والإنسانية والإلهية بالمعنى العام.

فمن الواضح أن مثل هذا العلم يستلزم الاطلاع على معارف جمّة وثقافات موزعة على فئات وقوميات وشعوب شتى؛ فهو يشمل كل المدركات الإنسانية التي يخاطبها الوحي كنص دينيّ قيّم.

الهرمينوطيقيا و صلتها بالنص القرآني

إنّ الهرمينوطيقيا القرآنية تدلّ على وجهات النظر المختلفة لفهم الإنسان من القرآن، كافرا كان أو مؤمنا. فالقرآن إذا لم يكن مُدْرَكاً بالعقول البشريه لما كان له تفسير. فالإنسان

[1]. For more information read Musa S. Dibadj. *The Authenticity of the text in Hermeneutics*. Washington D. C. 1998.

Archive of SID

www.SID.ir

هو الذي يفسر القرآن كما يفسّر الكتب المقدسة الأخرى وغيرها. فالغاية القصوى من الهرمينوطيقيا القرآنية ليست تفسيرا لآيات الصلوة والصيام، وإنّما التأمّل في أحكامها و وحدتها الموضوعية وقوّة بنيتها.(مفتاح، ٢٠٠٨م: ٢١۴)

إنّ اللّه تعالى، وجبريل (حامل الوحي)، ومحمد(ص) خاتم الرسل (الذي يُوْحَي اليه)، أدرى بالقرآن من الإنسان الذي يحاول أن يفهم القرآن بالاعتماد على عقله أو التفسير الناتج عن تفكير الآخرين. فالله تعالى، منزّل الكتاب الذي تُمَثّل كلماته منشورا لهدايةالنّاس، لايفتقر دون أدنى ريب إلى تفسير القرآن وتأويله، ولا عبرة في ذلك بين قول قائل: إنّ القرآن كلمة اللّه قديم أزلي، أو هو محدث مخلوق، لأنّ الله، على كل حال، عالم به لايحتاج إلى فهمه وتفسيره.

والنبيّ كذلك لا يفتقر إلى تفسير ما أوحِي إليه؛ نعم فالنبيّ محمّد عندما يواجه مسألة ما في حياته، شأنه كشأن غيره من بني الإنسان، يلجأ إلى القرآن مع علمه بجميع ما تضمّنه من مواضيع؛ لأنّ القرآن راسخ في ضميره رسوخا لامثيل له بين الناس ولانظير. فالقرآن هو أم الكتاب ومهبط كل العلوم المكشوفة وغير المكشوفة. وإيمان النبيّ به لا من جهة تأويله وإنّما هو إيمان بالنص وبالخبر خلافاً لمن سواه.(ابن عربي: ج١، ٢١٨)

إذن فالقرآن هو كلام اللّه الذي تتجلي فيه الأسماء والصفات، فهو الصحف القيمة، المرفوعة المطهرة، كثيرة أسماؤه، لايحصيها إلّا الله ورسوله، يصفه الامام على(ع) قائلا: إنه خط مسطور بين دفتين، قريب المنال للإنسان، لاينطق بلسان، ولابد له من ترجمان، شاهد يتشهد به أهل الإيمان عند الله الملك الدّيّان.(المجلسى: ج٣٣، ٣٧) فهو ذلک الكتاب الذي ينطوي على أسمى الأسماء، وأجمل الصفات للّه، سبحانه وتعالى، المنزّه من أيّ تفسير، الدالّ على أسماء اللّه وصفاته، المعروف بنعوت القدس في صريح الوحي والكتب. (ابن عربي، الفتوحات المكية:ج١، ٢١٨)

Archive of SID

www.SID.ir

إنّ اللّه ينفذ أحكامه دون أن يلجأ إلى تفسير و تأويل، فهو الذي يملک القرآن، ولا يُعدّ القرآن جليسا له ولا أنيسا. والنبيّ محمّد الذي اختار القرآن لنفسه مونسا، أقرب إلى اللّه شأنا ورتبة، وأبعد كل البعد ممّاسواه. ومهما يكن فالنبيّ أقرب الناس من القرآن ويفهمه حق الفهم، إنّ فهم الخاتم للقرآن يكسوه نوعا من التفسير والهرمينوطيقا إلّا أنّه يعلو على كلّ تفسير وتأويل.

وأمّا بالنسبة لفهم الإنسان من القرآن فإنّه يختلف عمّا يراه اللّه، سبحانه وتعالى؛ فعلى سبيل المثال ما يفهمه الإنسان من (يا أرض ابلعي ماءک) و (تبت يدا أبي لهب وتبّ) يختلف عمّا يراه الله؛ فلا يمكن لأحد أن يدّعي أنّه فهم جميع ما أراده الله من كلامه لأنّ الإنسان مهما كان عالما فعلمه ناقص غير تامّ

الهرمينوطيقا القرآنية التي تتأثر بصفتي العليم والحكيم للّه لا تحتاج إلى هذه الأسماء ولا الأسماء الأخرى من حيث الوجود وعلم الأسماء. و بالتالي، فالإنسان يرسم الهرمينوطيقا القرآنية ويفسرها؛ ونشير تلويحا إلى أن الإشكالية التي تدور حول الهرمينوطيقا القرآنية هو الاستفسار عن وجود القرآن و نصه. و مفهوم النص القرآني يمثل مكاناً أصيلاً في العلوم القرآنية. إن الوجود الذي هو أعمّ موضوع فلسفي هو عين النص و مصدر الهرمينوطيقيا والهرمينوطيقا الفلسفية، و له صلة بالهرمينوطيقا القرآنية.

و جاء في العلوم العرفانية، بأنّه ليس للقرآن والوجود حياة دون الآخر. وصرّح ابن عربي بأنّ القرآن إخبار عن وجود وأمر وجودي. (ابن عربي، الفتوحات المكّية: ج۱، ۲۲۸)

فالوجود هو الكتاب التكويني والقرآن هو الكتاب التدويني والصلة الوثيقة بينهما قائمة بحيث يمثّلان شيئا واحدا، وليس هناک برهان، نقلا ولا عقلا، يدل على أن غايةأحدهما تختلف عن الآخر. إن مركز دائرة الوجود هو اسم الله، وهذه الحقيقة مندرجة في كتاب الله وهو الكتاب التدويني؛ فالكتاب التدويني عين الكتاب التكويني، كما أنّ الكتاب التكويني عين الكتاب التدويني.

Archive of SID

www.SID.ir

كبار الفلاسفة الغربيين في عصرنا كهايدغر وغادامير، الذي اشتهر بموضوعاته الهرمينوطيقية ولا سيّما فى كتابه المسمّى بـ «*الحقيقة والمنهج*» (٧٥-١٩٧٤)، يسمون الإنسان بـ (دازاين، Dasein) أو الوجود الإنساني أو الكائن الإنساني. و هي صيغة تخلق في النفس نوعا من التساؤل عن معنى الوجود(الكينونة المطلقة).

ونحن نتساءل كذلك ونقول: أليس إمكان وجود الإنسان في القرآن المقدس هو بدل من إمكان وجود الإنسان في عالم الوجود؟ سنجيب عن هذا السؤال ضمن موضوع آخر. ولكن ما يعلمه كلّ إنسان هو أن النصين المتجانسين بين أيدينا: الأول النص المكتوب والآخر هو النص الوجودي، وهو العالَم بأكمله، وكلاهما خاضعان للبر اهين المحكمة وقابلان للفهم والتفسير.

وبما أنّ الفكر الإنساني من حيث أنّه يتوقف في وجوده على الوجود فكل تفسير يصيغه عن العالم يكشف نوايا مغروسة من قبل. فكلّ مفسّر يساعدنا في فهمنا للوجود لابد له أن يفهم كل ما يفسره(غادامير). هذا التفسير يشمل كلا الحقلين تفسير الوجود و تفسير النصوص، والقرآن يقع في القمّة بين النصوص. إذن نقول: إن كلّ سؤال هرمينوطيقي عن القرآن يكتنفه سؤال هرمينوطيقي عن الوجود؛ وليس ذلك لشيء إلّا لأنّهما يصدران من مصدر واحد.

تتسع النصوص الهرمينوطيقية أو المصادر الهرمنوطيقية في الأجواء التفسيرية إلى حيث ما يريد اللّه اللطيف الخبير. فهذه الأجواء تُظْهِرُ مقدرة الإنسان في فهم ما ظهر من الوجود واختفى؛ وهل الإنسان يفكّر في شيء سوى الإجابة على فلسفة وجوده؟

إن اللّهَ يخبر عن أمر خلقِه للأشياء فيقول: (إنّما أمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (يس/٨٢). فأراد الإنسان وقال:(كن)، فصار الإنسان إلى حيّز الوجود. وأخبر الإنسان الكامل عن سرّ الوجود فقال: (وإذ أخذ ربک من بني ءآدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) (سوره الأعراف/١٧٢) وهاتان الآيتان

Archive of SID

www.SID.ir

مِن أظهر الآيات المتعلّقة بأمر الوجود وتضمّنتا جميع الإجابات عمّا يستفهمه الإنسان حول حقيقة وجوده. والإنسان الذي آمن بما أُمِرَ لابد له أن يجيب عن حقيقة المأمورات، وهنا تكمن نقطة الخلاف بين بني البشر، لأن كل شخص له رأيه الخاص الذي يؤمن به.

فلكل فرد وجهة نظره الخاصة بالنسبة إلى أمر اللهِ (كن)، والقرآن المجيد؛ لأن اللّه يأمر الإنسان بنداء خاص، ويدعوه دعاءً خاصا. وتفسير الإنسان للقرآن يُبيِّنُ عن فهم خاصّ للوجود الحقيقي. والاستجابة للخطاب القرآني هي حقيقة يذعن لها كل إنسان. والإنسان هو من تسلم كلام اللّه وفهمه حق الفهم واستجاب له. ولا يخفى على أحد أن الحقيقة تختلف بالنسبة من شخص إلى آخر، ومن يتحلي بالإجابة المحكمة البيّنة، فنصيبه من الحقيقه أسمى وأجلّ.

و بقدر ما يقترب الإنسان من القرآن ويتفقه فيه، يتمتع من الحقيقه. وما تعرّفنا عليه، حتّى الآن، هو أنّ الله لايخاطب الأشياء ولا الأجسام ولا الحيوانات ولاالملائكة أوّلا، بل يخاطب الإنسان، روحه وعقله؛ هذا الخطاب لا يقع دفعة واحدة، لأنّ الإنسان يخلق شيئا فشيئا. الإنسان ذو صبغة زمانية، حيث خُلِقَ من صلصال ثمّ من نطفة على امتداد الزمن، ولايضره الاختلاف بين الأشعريين ولا المعتزليين الذين يناقشون مسألة خلق القرآن: أهو حادث أم قديم، والقرآن يخاطب الإنسان دائما، فالله هو الذي شرح للإنسان كلامه وترجم له معناه. المتكلم هو الله، والسامع هو الإنسان المخاطب (و فى بعض الأحيان هم الجن). وقد فهمه السامع واستجاب لندائه لا كأقنوم أو أمر مستقل كما يزعم أدونيس. (أدونيس، الصوفية والسوريالية، ۱۹۹۵م: ۱۵۰ - ۱۴۹)

فالقرآن، مكتوبا أو مقروء، يخاطب الإنسان على مرّ العصور والأيّام. فيتناول حياة الإنسان في تطوّراتها المختلفة؛ وعلى هذا لا بدّ لنا أن نقبل أنّ القرآن يخضع للتفسير طيلة حياة الإنسان وذلک أمر ممكن. لأنّنا نسلّم بأنّ القرآن مؤلّفٌ من جمل وآيات فهو مازال يخاطب من يخاطب من الملائكة والجن والإنس وما عداهم ويدعو الجميع للاستجابة.

www.SID.ir

و هذا لا يعني أن وجود آيات تستعصي على الفهم الإنساني تدلّ على وجود إنسان دون وجوب فهمه. و نقطة الارتكاز هي أنّ الآيات القرآنية تؤثّر على الانسان وغيره من دون وعي وتنبّه.

أشرنا سابقا بأن النص بالنسبة إلى التفسير محسوس لا يكتنفه غموض؛ وهذا لايعد وحده ميزة للنص. فنحن لا نستفيد لو أنّ منكرا أو فلسفيّا ناقش الحقيقةالقرآنية، وبالإضافة فان القصد من حقيقة القرآن في الفلسفة و المصطلح الفلسفي ليس واضحا، فمن الضروري أن نقول بأن القرآن الذي يهدي الناس هو الحق. ومن الممكن أن نقول: بأن الإنسان عبر السنن القائمة يقترب من القرآن ثم ينكشف له الغموض الذي يكتنف القرآن. والتناسق والتقارب الموجود بين القرآن والسنة لا يعني بأنهما شيء واحد في النهاية، بل السنن الاجتماعيه العالقة تجعل أسسا للتفسير أمام الإنسان. أما مادة الحضاره الإسلامية أصلاً في كتاب الله، بغض النظر عن التآلف القائم بين الكتاب والسنة في مختلف الظروف زماناً و مكانا.

لايعتبر القرآن كغيره من الكتب، ولا يُعَدُّ ضمن الكتب السماوية الأخرى كالزبور (لداود)، والتورات (لموسى)، والإنجيل(لعيسى) إلا بالإجمال. وليس القرآن أوراقاً وخطوطا مكتوبة فحسب، بل هو كلام من اللّه، واللّه سماه كتابا، وسماه حكيماً مبينا؛ فهو ليس كمثله شيء معنىً ولا اسما. إن المؤمنين يعيرون اهتماما بالكتب المقدسة الأخرى التي أنزلها الله على الرسل الكرام لأنّها ذُكِرَتْ في القرآن.

إذن هنالک فرق کبیر بين القرآن والكتب الأخرى من حيث أنه كلمة إلهية، وكلماته فريدة لا مثيل لها ولانظير في الوجود.

إن الطاقة الذاتية للقرآن تكمن في نصّه وهناك أنماط من المفسرين في العالم الإسلامي كالأشاعرة والمعتزلة والشيعة والفلاسفة والكلاميين وكلّهم يحسبون أنّهم أحسن تفسيرا لكلام الله من غيرهم. فهؤلاء القوم أثاروا تساؤلات عديدة ومناقشات حامية الوطيس حول

Archive of SID

www.SID.ir

القرآن، منها: أيعدّ القرآن حادثا أم قديما؟ وهل تأويله ممكن أو لا؟ وهل لغته إنسانية أو إلاهية؛ وكل هذه القضايا نوقشت بالتفصيل الذي لايخلو من العقلانية والبرهان. وبغض النظر عن معاني الآيات وأسباب نزولها علينا أن نقبل أن القرآن يتلألأ بين التفاسير وبه تستقيم، فنرى على مدى العصور كلَّ الفرق والمذاهب تستشهد به، فهو لايقتصر على فرقة أو فئة خاصة، ولا بعصر صدر الإسلام دون غيره من العصور. واعتماداً على هذه المستندات والاستشهادات بدأت الأسس الفقهية والكلامية والفلسفية المختلفة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حقيقة القرآن. فكل العلوم البلاغية كالتمثيل والحقيقة والمجاز وماسواها وليدة التفاسير القرآنية. إنّ تفسير النصوص القرآنية أدّى إلى ظهور أنواع مختلفة من العلوم فالأحكام الفقهية تمخضت من النصوص القرآنية جملة وتفصيلا.

والفقه علم يبحث عن الأحكام الشرعية للمعاملات والعبادات التي يمارسها المؤمنون. النص القرآني يبيّن لنا حقيقة الوحي، ولماذا يجب الاستناد بالقرآن في استنباط الأحكام؛ ولابد من الذكر أن الأحكام الشرعية مأخوذة من القرآن مباشرةً أو غير مباشرة.

القرآن ليس هو المناط لمعرفة الأحكام الفقهية فحسب، بل به يتميّز الحق من الباطل في نتاجات العارفين والفلاسفة الإسلاميين، فنتاجاتهم إن كانت موافقة للقرآن فهي حق، وإلّا فهي باطلة مردودة مرفوضة.

فالقرآن ليس محفوظا بكاتبيه ولا الرسول الذي أنزل عليه ولا الأئمة المعصومين من ذريته بل حافظه هو الرحمن. فالقرآن لم يشر إلى: من حرّره؟ ومن كتبه؟ بل أشار قائلا: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (سورة الحجر/ ٩) فنستنتج إذن أنّه لا فصل بين اللّه وكتابه، وكتابه يستوعب كلامه الذي صدر منه، فهما غير منفصلين أبداً. إن اللّه هو القائم بالإنذار والتبشير والوعد والوعيد. فكل ما وعد الله وتوعّد سيتحقق دون أدنى ريب. وما أجمل ماقيل: بأنّه لا فرق بين كلمة القرآن وإرادة الله، فهذه الميزة منحصرة بالقرآن والهرمينوطيقا القرآنية في ظل اندماج المُنْتِج والنتاج.

Archive of SID

www.SID.ir

النصوص والكتب التي يحرّرها الانسان يترک فيها المنتج يوما ما نتاجه، والنتاج لايفتقر الى منتجه، فليس مهمّا أن يكون المنتج حيّا حاضراً، أو ميّتاً غائباً. فالصلة بين المنتج والنتاج تنقطع بعد إنتاجه لأنه لا يحتاج إلى من أنتجه.

فلذلک ذهب بعض العلماء الهرمينوطيقيين المعاصرين إلى أنّ المؤلف يموت في ثنايا نتاجه. وهذه المقولة صحيحة إن كان النتاج وليد يومه، فاليوم لاصلة له بالنتاج، فلذا لايحتاج النتاج أدنى حاجة إلى منتجه، فالعبرة في ذلک ليست بحياة المنتج أو وفاته. فالكاتب لايملك ماكتبه لأنّه غائب عنه مهما كرّر اسمه في مطويّات كتابه؛ إذن يبقى كتاب واحد يختلف في ذلك عن جميع الكتب وهو القرآن المجيد الذي حفلت آياته المتشابهات والمحكمات بأسماء اللّه فهو الذي يحفظه وهو الحي في كتابه. فمن فرّق بين الحق والفرقان فهذا دليل على جهله بالقرآن.

ولا يخفى على ذوي العقول وأصحاب المعرفة بأن أصل الوحي والكتاب كان موجودا قبل نصه الظاهر؛ فالله نزّله على جبرئيل وهو تلاه على الرسول(ص) إن القرآن أنزل قبل نصه الظاهر كما جاء فيه: (إنّا أنزلنا إليک القرآن) وما قال: (إنّا أنزلنا إليک النّص). وبالنسبة لمرتبة الوجود يأتي القرآن أوّلا ثم نصه، وهذا لايعني وجود فصل بين القرآن ونصه. واعلم أن القرآن والأحاديث التي تصدر عن النبي(ص) والائمة المعصومين المؤمنين ليست في طبقة واحدة، فالأحاديث تأخذ قيمتها من القرآن وهو الذي يمنحها القيمة والصيت على الإطلاق. فقيمة كل النصوص الشرعية الأخرى تتوقف على النص القرآني، والعكس غير صحيح. فالنصوص الأخرى مقبولة مادامت غير متعارضة مع القرآن. فالأحاديث النبوية في حقيقتها تفسير للنص القرآني ولا غير؛ واللّه تعالى يؤيد تفسير رسوله الخاتم للقرآن بقوله: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)(النجم/٣-٤)

Archive of SID

www.SID.ir

اذا قلت متسائلا: ما هو حدود النص القرآني؟ نجيب: النص القرآني يتألّف من آيات متشابهات وأخرى محكمات، و من سور وجملات وأجزاء. فالفرق بين القرآن والنصوص الأخرى أنّه لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه.

القرآن يجتاح الحدود الفقهية التي يرسمها الفقهاء قائلين: لا تمسّوا القرآن إلا وأنتم متوضؤون، ونحن نضيف أنّه لا يفهم القرآن إلا المتطهرون، كما قال تعالى: (لا يمسه الا المطهرون) (سوره الواقعه/ ۷۹). ومن أراد أن يمسه فعليه أن يتطهر، فبالتطهّر تنكشف المعاني و يتعرّف المتطهّر على باطنه. فالقرآن منزّه من أيّ ريب بخلاف الكتب الأخرى، قال تعالى: (ذلک الکتاب لا ريب فيه) (سورة البقره/ ۲)

هذه الآية تتوّج القرآن بتاج اليقين وتخاطب الجميع وتنير أذهان المخاطبين بأنه لا ريب فيه. و في آية أخرى يؤكّد الله، سبحانه وتعالى، هذا المعنى بقوله: (وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (سورة البقره/ ۲۳) ثمّ يوضّح عجز الغير عن الإتيان بمثله قائلا: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (سورة الاسراء، آيه ۸۸)؛ ويقول واصفا إيّاه: (يهدي للتي هو أقوم) (الاسراء/۹) فهو يدعو الناس إلى الطريق الأقوم والصراط المستقيم. فالقرآن احتوى كلّ مفيد فهو واضح المعالم، موحّدة آياته ومتحدة، فلاتحدّده الأحكام الفقهية والشرعية، فاللاحدود حدّه. وهكذا تحدث الهرمنوطيقيه القرآنية.

إن القرآن ليس مقصوراً على الآيات والأدلة التي تكلّف الإنسان القيام بما هو واجب عليه وتُبَيِّنُ له صالح الأعمال من طالحها؛ إن حدّ القرآن يقتصر على وحدة القرآن ونصّه، وكل ما خرج عن هذا الحدّ فهو منبوذ ومرفوض.

و فصل الخطاب فيما يتعلّق بالقرآن هو أنّه كتاب الله احتوى على كلماته وكلامه، وليس ثمّة كتاب يتميّز بهذه الخصيصة، وإن كان فمزيج من مصادر مختلفة.

Archive of SID

www.SID.ir

فالقرآن كتاب الله حتّى عندما كان كلاما وقولا فقط. يقول الله تعالى: (قول الحق الذي فيه يمترون) (سورة مريم/٣۴). (فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند اللّه) (سورة البقرة/ ٧٩). إنّ القرآن ليس كلام النبي(ص) وأهله وأصحابه، ولا الملائكة المرسلون إلى النبي(ص) بوحي من الله، بل هو كلام اللّه، هو كتاب الرحمن من الرحمن.

فالقرآن يحتوي على سديد الأقوال ومحكم الكلام، وهو محرّر من عند اللّه مباشرة. وإذا لم يكن كلام اللّه كتابا لما سماه في سورة البقرة بالكتاب (ذلک الكتاب)، إنّ كلام الله هو كتاب اللّه أي القرآن. فكما قالوا: القرآن مأخوذ من القراءة، وهو يقرأ أي يتلى.

وهذه الوجوه التي ذكرت منحصرة في كتاب اللّه، وقد بدا لنا بوضوح بأن القرآن فريد في نوعه، فهو الأول والآخر ولا يساويه أي نص في علوّ مرتبته.

اعتبر ملاصدرا كلام اللّه وكتابه ألقابا للقرآن، ويعتقد أن الفرق بين كلام اللّه وكتاب اللّه يتجلّى في مسألة الأمر والفعل؛ الفعل يتجدد ويقيد بالزمان، لكن الامر لا يحمل أي تغيير وتبديل، و يمضي قائلا: الكتاب هو صورة الكلام المنزل وتابعه. فالوجود العقلي للعالم وفعله وخلقه هو كتاب الرحمن، عزوجل، والمخلوقات والكائنات و مظاهرها دلالة على آياته. إنّ كلمات الرحمن التي أنزلت على النبي(ص) كلها قرآن وفرقان، فهي تختلف عن الكتب السماوية الأخرى التي توصف بصفة القرآن؛ والفرق بين هذه الكتب يعود الى الفرق بين الحق البسيط والعقل الكلي.

و نعلم مما سبق بأنّ القرآن حافل بالآيات والسور، فمنها القصار ومنها الطوال، وهناك بعض السور التي تبدأ بالحروف المقطّعه. والمعاني والمفاهيم التي تضمّنتها هذه السور والايات لا يفهم مغزاها بمجرّد النظر إليها، بل تحتاج إلى قلب صاف ينفذ من ظاهر النصوص إلى باطنها، فكما يروى «إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وبطنه الى سبعة أبطن» (المجلسي، *بحارالأنوار*، ج ٩٢، ص. ٩٧) فآيات القرآن تنير العقول وتوقظ القلوب وتنضج الأفكار، والتفاسير والعلوم القرآنية تكتسب حيويةً بمعاني القرآن.

Archive of SID

www.SID.ir

فالنص القرآني يمكن أن يغيب من القرآن، والدليل على ذلک قول الإمام علي(ع)، حيث سمّاه بالقرآن الصامت يوم صفين. والقرآن نزل بلسان عربيّ مبين، ولا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى بالكامل، وإنّما يترجم ظاهر النص فحسب. وجدير بالذکر أن الترجمات التي صيغت بلغة عجمية نطلق عليها تجوّزاً اسم الكتاب مع أنّها ليست بلسان عربيّ. ولابد أن نقبل بأنّ القرآن هو ذلک النص الجامع الذي يجمع بين القرآن والهرمينوطيقا وبين المرجع والتفسير. مثل هذا القرآن قد يندمج بالتفسير. فالنص القرآني هو القرآن أصلا وذاتا، وهو المرجع الجامع والتام لكل شيء، وهو المفهوم الذي يفهمه الانسان من كلام اللّه فيصير تفسيرا. فمثل هذا النص السامي يعدّ مصدر الهرمينوطيقيا القرآنية. والقرآن يتمتع و يتجلى بأعلى درجة من الظهور، قال تعالى:(تلك آيات الكتاب المبين) (القصص/۲)

و ممّا لاريب فيه أنّ كلمات القرآن تدلّ على الفعلية والكلية لكلمة اللّه، ولا يوجد مؤشرا يدل على أن في القرآن ما له فعلية أفضل ممّا كان عليه. ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول: إن القرآن أعلى مرتبة الكلام، والحقيقة تحيط بكلماته من كلّ جانب؛ فهو أعلى درجة الحقيقة المألوفة في الفلسفة المحضة والفلسفة الإلهية. وجدير بالذكر أنّه بالنسبة للعرفان التجريدي المعتمد على الوحي المكتوب أو كتاب اللّه يمكنه أن يظهر مكانة الأسماء الكاملة والصفات التامة، ومن خلال مبدأ القرآن يتمكن الإنسان من الظهور والتجلي في ساحة الحياة، والهرمنوطيقية هی الطريقة التي تجعل الإنسان قادرا على فهم القرآن وتفسيره للحصول على مكانته السامية ومظهره اللائق به.

ولابد أن نذكر أنّ الوحي ليس من إنتاج التاريخ، ولا له طابع تاريخي، ولكن مَن يخاطبه القرآنُ يجد فيه سمة تاريخية، لأن الوحي تحقق فعلا. فالقرآن ليس تاريخا لأنّه كلمة اللّه، ولكن من حيث إنّه قابل للتفسير في كل عصر وزمان فهو يكون بهذا الاعتبار تاريخيا. فكل تفسير للقرآن يجعله تاريخيا ولكن ليس النص تاريخيا بل قرآني محض. ولا زال القرآن كلمة الله غير مفسر. وما إن فهم الانسان نصه أدرک فيه ما هو مطبوع بطابع

Archive of SID

www.SID.ir

التاريخ. إنّ تفسير الإنسان للقرآن يعدّ تاريخيا لأنه خلق عبر التاريخ. والإنسان فهم التاريخ وفسرّ الوحي عندما نزل، ومن خلاله يعتبر الإنسان علامة ظهور الحق وأسمائه الجليلة.

فالقرآن نزل، أوّل ما نزل، دفعة واحدة، و بهذا الاعتبار ليس حدوثه تاريخيا، يقول الله تعالى:(إنا أنزلناه في ليلة القدر) (القدر/١) ثمّ نزل تدريجيا في مراحل مختلفة. فلمعرفة المعاني الجليلة والحقائق المستقلة عن اللغة والصيرورية اللغوية (اللغة العربية للقرآن) لابد من البحث في ظاهر القرآن، وذلك مرجع الاجتهاد وتفسيرنا للقرآن، وهذا ينافي ما يراه من أمثال أبي زيد ممن يعتقدون أن مرجع الاجتهاد يعود إلى الباطن.

فالتفسير الصحيح هو الذي يستبطن القرآن، وهذه الرغبة الهرمينوطيقية التي تدفع المفسر من ظاهر القرآن إلى باطنه توفر لنا فهما تاريخيا للقرآن، وهذا ممّا لابدّ منه؛ لأن الخطاب القرآني موجه للبشر وهم يعيشون في حدود الزمان والمكان، وبتعبير آخر يعيشون في ظروف تاريخية. وإذا لم يكن للظاهر باطن فالفهم غير ممكن في كل حال؛ وإذا نظرنا إلى نص القرآن ظاهرا فسنحذو حذو الأشعري، وإنا إذا سبرنا القرآن وتعرّفنا على ما في ظاهره و باطنه فالاجتهاد سيستمرّ. إن النص دلالة لاتحصر، و معنى لايضبط، ولا يمكن الاتفاق على تفسير واحد، أو تأويل أحادي الجانب؛ فالخطاب الإلاهيّ يتّسع لإمكانات لاتستنفد.(حرب، ٢٠٠٧م، ص٤٣)

وللنص القرآني تفاسير متنوّعة في مختلف العصور، واذا كانت هذه التفاسير المختلفه تعبّر عن مقاصد الرحمن في كتابه، فهي إلى الصواب أقرب، و إن لم تكن كذلك فهي في الباطل مذهب. ولايمكن الجمع بين هذه التفاسير من حيث إنّها متشابهة في الظاهر لغة وتاريخا، ولايمكن اعتبارها خارجا عن النص. والاختلاف الموجود بين التفاسير لايعني أن التفسير يتنافى مع النص، وعلى وجه العموم فإنّ هذه الاختلافات الموجودة بين التفاسير تجعل النص مفتوحا أمام من يقوم بالتفسير. والنص إن لم يكن متعدد المعاني فالباب أمام

Archive of SID

www.SID.ir

المفسر مسدود للقيام بالتفسير. فالنص نفسه لا اختلاف فيه لا على مستوى النظم ولا على مستوى المضمون (المعنى والدلالة)، كما زعم الغزالي، ولكن من الممكن القول: بأنّ اختلاف الناس حول النص مرجعه تلك الخصائص التي يتمتّع بها النص ذاته، وهذا الاختلاف لا يؤدي إلى التناقض.[١] هذه القاعدة يمكن تطبيقها على القرآن الكريم رغم أن الطريق إليه مستقيم لاعوج فيه ولا أمتا. و بهذه القاعدة تتاح فرص التفسير لمشارب فكرية متعددة كالأشاعرة والمعتزلة والقدرية والمشبهة والمجسّمة والراميين والخوارج؛ وهذا لايعني صواب مذهب وفساد الآخر على الإطلاق بل يدل على أن القرآن يحمل تفاسير مختلفة فيصيب فريق ويخطئ فريق آخر في بعض مااستوعبه.

المقصد الأول في الهرمينوطيقا القرآنية هو توفير فرص التفسير وفتح الباب أمام المفسرين دون التعصّب لرأي واحد، وتفسير واحد، وفرض فهم واحد على الآخرين. والقرآن يصون نفسه بنفسه؛ وحفظُ القرآن وصيانته ليس متطلّبات الهرمينوطيقيا الأصلية، لأن الإنسان لا يستطيع أن يحافظ على ما ليس من صنعه وهو بالنسبة للقرآن ليس إلا مخاطبا. الهرمينوطيقية القرآنية هي من فنون تفسير القرآن بحيث تمهّد الطريق للفهم ولا غير. وقد أبانت الهرمينوطيقيا من خلال الإتيان بتأويلات غير مكرّرة بأن القرآن لاحدّ له في معانيه ومضامينه.

لا يضرّ المُفَسِّرَ للنص القرآني، أن يقوم غيره من المفسرين بالاستناد على ما في القرآن بنقض ادّعائه في التفسير، ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا الشارع المقدس، فليس لأيّ تفسير أن يتعدّاه. إذن فالقرآن يتسع للتفاسير عندما تكون فهما واستنباطا. فالاستنباطات تؤيد الهرمينوطيقيا التاريخية. وكل استنباط يسعى لغاية واحدة و هي تحسين النص. فالنص لايُفقد أهميته إذا ما لجأ المفسر إلى الاستنباط والتقدير المفهومي، بل على العكس فهذا يدل على مدى مقدرة النص في استيعابه للقراءات المختلفة والفهم المتنوّع.

---

١. قارنها بنظرية نصر حامد أبو زيد، *مفهوم النصّ*، ص. ١٨٦.

Archive of SID
www.SID.ir

ومن جانب آخر، و استنادا إلى ما جاء في القرآن، فإنّ الإنسان بحاجة إلى مثل هذا التفسير في حياته، رَضِيَ بذلك أو لم يرضَ. وقد ذكرنا آنفا بأنّ الخطاب التدويني هو نفس الخطاب التكويني الذي تجلّى في خلق العالم والكائنات والسماء والأرض. ومن الضروري أن يجتمع تصور المفسر للنص مع تصوّره للوجود. إنّ القرآن هو الوجود المتجلي من خلال اللغة، وهو الجامع للحِكَمِ التي تساوي الوجود والإنسان، وترمز إلى الحقيقة الوجودية الإنسانية.(أبو زيد، هكذا تكلّم ابن عربي: ٢٣٧) إنما القرآن خطاب إلاهي صار مكتوبا يقرؤه الإنسان ويتذوقه. والنصّ القرآني لايحول بين الإنسان وحريّته في الإفادة من جميع العلوم التي ظهرت إلى عالم الوجود. ها أنا حاولت تجنّب الاستناد إلى الآراء والأفكار التي أبانت عن فهم أصحابها للقرآن، وهذا أمر طبيعي ومتوقع. وعلى كل حال فالقرآن يمثّل نصا واحد والكل يفهمه بمقدار ما يتمتّع به من علم وثقافة، مصيبا كان أو مخطئا. والمرجع والنص الذي يتغذى منه المفسر إذا لم يكن صادقا فهو ليس من القرآن، بل هو كذب ولا أساس له. والحقيقة هي أن كل تفسير يقوم به المفسر إذا كان مناقضا للقرآن ويخالفه ينال بسمعة صاحبه. ويمكن أن نعرّف التفسير الكاذب بأنه لاصلة له بالتفسير، بل هو كذب وهراء وثرثرة. والتفسير الحقيقي الصحيح هو مايبحث فيه المفسر عن إجابة لسؤال صحيح صادق خطر على باله، فراح يتصفح أوراق القرآن للوصول إلى الإجابة. فهو لايستفهم بسؤال لاصلة له بالنص القرآني ويعود إلى النصوص الأخرى.

إنّ المفسر الصادق يُلفي القرآن كما هو، وإن كانت تحيط به كثير من الشبه، فهو لايملّ ولايتعب في سبيل الوصول إلى الفهم الصادق والإجابة الصحيحة عن أسئلته. والفلاسفة يعتمدون على النص القرآني كمرجع للوصول إلى الإجابة عن أسئلتهم الفلسفيه ومعرفة العالم. ألا تعتبر التأويلات التي تحدّثوا بها عن معاني القرآن دليلا على أنه نص فلسفي و إن كان سماويّا؟

Archive of SID

www.SID.ir

إن الفيلسوف بإمكانه أن يبدأ أبحاثه بأسئلة يكتنفها الشک والريب؛ ولكن بماذا يجيب القرآن عن مثل هذه الأسئلة. والحقيقة أنّ الله نفى الشک المضاد لليقين عن كتابه وليس عن قارئه، ومرجع الضمير في «لاريب فيه» هو الكتاب. فليس اليقين هنا من الأحوال التي تتعرض لها النفس كالاطّلاع على شيء والعلم به، بل هو المعنى الحقيقي الذي يمليه الكتاب على النفوس السويّة، أو أنّه يعود إلى المعنى الهرمينوطيقي التامّ الذي ينفي عن القرآن الخيال والأوهام.

هذه هي حقيقة الكتاب حيث لا ريب فيه ولا شكّ ولاعدول عن الحقّ. إنما الإنسان يتذوق القرآن ويسبر أغواره، والإنسان بطبعه يداخله الشک أحيانا.

أَمِنَ الممكن الشک في القرآن أم لا؟ إنّ التشكيک في النص طابع له، وليس الشک حالة معرفية للنفس، ولإضفاء معنى للنص لابد ان يفسر. ومن يقوم بالتفسير لا يريد إلا أن يزيل ما يدور حول النص من الشک والالتباس.

و إذا النص آثار الشكوک فالخطأ يعود إلى القارىء ولايعود إلى المقروء (المرجع). إنّ النص اذا ظهر من خلال النصوص الأخرى فالطريق إلى الطعن فيه يصبح ممهّدا. إنّ النصوصية تجعل النص حيا نابضا و تنفي عنه الشك.

فالنصوصية تخلق معرفة حول النص والمعرفة التي حصلت من جرّائها هي معرفة خاصة وليست معرفة صيرورية بل هي تقع في كنه النص الذي تحصل فيها المعرفة.

إنّ النص يقبل الشک؛ لأن النصوصية يتعدّى إليها الريب. النصوصية تقبل الشک لأنها تحدث حيث النص لا يعرف مداها.

إن الاستفهام عن وجود الشک في القرآن أو عدمه استفهام في غاية الأهمّية. إن اللّه، جلّ جلاله، أعلن إعلانا أزليّا أنّ القرآن لاريب فيه،(الم ذلک الكتاب لاريب فيه) (سورة البقرة/ ۱و۲) هذه الآية التي استهلت بها سورة البقرة تنبئُ بأن القرآن حق، ومثل هذا الاستهلال يدل على أنه الأعلى والأفضل بين النصوص. يستهل القرآن بأنّه لا ريب فيه،

Archive of SID

فيؤيِّد نفسه ابتداءً ويعرض نفسه كنص، ويعتبر ذلک دليلا على أصالته. إنّ مثل هذا التعبير يعتبر الأساس لنظرية أصالة النص في الهرمينوطيقيا القرآنية.[١]

والمفسر المؤمن ذو صلة وشيجة بالقرآن بحيث يندمج بمفاهيمه وأحكامه وحوادثه. وهو يُقْبِلُ على التفسير كي يُعلِن عن تأييده لكل ما ورد فيه. والمفسر المؤمن هو من يحاول أن يفسّرالقرآن رغم الشوائب الفلسفية والشكوک المبدئية دون أن يناقض النص الجليل. إنّ المفسر الذي لايؤمن إلا بحقّانية الكتاب لايرى حاجة في القيام بتفاسير خاصة للكتاب إلا إذا اقتضت الضرورة؛ فهو لايريد مسبقا أن يضيف شيئا على الكتاب المقدس، لأنّه ينتظر من القرآن نفسه أن يكلمه بأسلوبه الخاص في تكليم النفوس وإقامة الإيمان في القلوب. الفرق بين المفسر المؤمن وغيره أن المؤمن يؤمن بتصديق الكتاب له فيما قاله بصدق ولكن غيره ليس كذلك.

إذن فكل كتاب يدلّ على حقيقة نفسه وصِدْقِ نصوصه باعتبار أصالته؛ وكل تفسير دون إيمان إن كان مفسّره غير منطو على عداوة فهو يتّصل بالقرآن ذاتيا. ولايخفى على أحد أنّ التفسير، أيّاً كان، يعدّ نوعا من التأييد التلقائي والتصديق المباشر، وهو يقرّ حقيقةَ ما كان حقّاً. وجدير بالذكر أن تفسير القرآن بالقرآن أقرب إلى حقيقة النص لأنّ المفسّر يعتمد في ذلك على آيات أخرى لتفسير آية ما. إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، وهذه ميزة أصيلة للقرآن، لاتنحصر فيه، بل تشاركه في ذلك النصوص الأخرى أحيانا، فمن الأمثلة على ذلك نص الإلياذة لـ "هوميروس"، والشاهنامة لـ "فردوسي"؛ فالقارئ إذا قرأ قسما من هذين الكتابين لابد له من مراجعة مواضع أخرى منهما كي يتمكن من فهم النص بصورة صحيحة.

١. لمزيد من الاطّلاع يراجع: السامرائي، *من وحي القرآن*، ١٩١٨م: صص ٦-٥.

Archive of SID

ومثل هذا المنهج في التفسير يدلّ على أن المفسرّ، وهو إنسان، يستفهم من النصّ، ويقيم علاقة وطيدة معه، كي ينفذ إلى صميمه ويتعرّف على حقيقته. ومن طبيعة الإنسان، كما نعلم، أنّه مُتَقَصّ متسائل، وإذا أثار سؤالا عن حقيقة النصّ فهذا لايعني أنه فسّره، والاستفهام لا يعدّ تفسيرا؛ نعم، فالسؤال يعتبر جزءاً من التفسير متى ما نتج من النص، وهذا يعني أن النص مقدم على التفسير مطلقا. فالقرآن يجعل المخاطب يشعر بأنّه يتكلّم معه، وهذه الخصيصة تيسّر أمر تفسيره وفهم آياته ونصه. فالمفسّر الصادق يسعى كي يجعل تأويلاته ضمن نافلة القول، أو يجعلها بين القوسين، ثم يصغي إلى الوجوه المختلفة للآيات التي تفسّر بعضها بعضا. فالتفاسير سواء كانت صائبة أم خاطئة، لاتقترب من حقيقة النص القرآني على قدر سواء، كي تتمتّع بقيمة هرمينوطيقية واحدة. فالفهم إذا كان إلى الصواب أقرب فهو لحقيقة القرآن أكثر بيانا وتوضيحا. فالنص هو الذي يفصل بين الفهم الصائب من الخاطىء، والقريب من البعيد. فالأحكام والتفاسير على قدر قربها من النص تبتعد عن الأوهام والأخيلة.

والتفسير مهما كان بعيدا عن النصّ فإنّ صلته به لاتنقطع تماما، لأنّ هذه التقديرات المفهومية لابدّ لها أن تُطْبَعَ بطابع ناتج عن معرفة العالم وإملاءالكون.

إنّ كلّ تفسير للقرآن يبيّن لنا كيف تلقّيناه وفهمناه، فهو على هذا الأساس لاحدّ له، ويمكن أن يحدث في كلّ حال من الأحوال؛ لأنّ كيفية قِراءة النصّ وتلقّيه تتمّ بواسطة الإنسان، والإنسان حرّ في تلقّيه للقرآن سواء كان واعيا لحقيقته أم معاديا لها. والنص القرآني حاضر في كلّ تفسير قرآني قام الإنسان به، فهو يُفْرِضُ نفسه فرضا حتى في التفاسير التي تُشَمُّ منها رائحة الإلحاد والكفر.

والحقيقة أنّ القرآن بيّنٌ في تعابيره، مصون في ذاته من أدنى ريب وشك، والريب هو في فهمنا للقرآن وكيفيّة تلقّينا له؛ فجميع الكتب التاريخية التي قامت بالطعن في القرآن

Archive of SID

www.SID.ir

ليست إلا تقارير ساذجة حول وجود التناقض فيه، والمفسر الطاعن مدعاة لذيوع القرآن وانتشاره دون أن يعي ذلك.

النتيجة

تعدّ الهرمينوطيقيا القرآنية فنّا من فنون تفسير القرآن بحيث تمهّد الطريق للفهم، فهي تتناول النص بصورة مباشرة دون أن تعتمد في تأويلاتها على تفاسير أخرى حتى ولو كانت في منتهى البساطة؛ لأنّ النص مصدر للتفسير، وليس التفسير مصدرا للنص. فمعرفة الوجود المحض وتجلّيات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا يمكن أن تتحق إلى حدٍّ ما عن طريق الهرمينوطيقية الخالصة التي تباشر النص ولاتعتمد على تفسير لأحد. وقد أبانت الهرمينوطيقيا من خلال الإتيان بتأويلات غير مكرّرة بأن القرآن لاحدّ له في معانيه و مضامينه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن عربي، محيى الدين، الفتوحات المكية، دارإحياءالتراث العربي، بيروت.

أبو زيد، نصر حامد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

ــــــــ، *مفهوم النص*، الطبعة الأولى، بيروت، مركز الثقافي العربي، ١٤٢٥ق.

أدونيس، علي أحمد سعيد، *الصوفية والسوريالية*، ط٢، دارالساقي، بيروت، ١٩٩٥م.

حرب، علي، *التأويل والحقيقه، قراءات تأويلية في الثقافة العربية، دارالتنوير، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.*

السامرائي، ابراهيم، *من وحي القرآن*، ط١، اللجنة الوطنية، بغداد، ١٩١٨م.

المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٣ ق.

مفتاح، محمد، *دينامية النص*، ط٣، المركز الثقافى العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٦.

Dibadj : Musa S، *The Authenticity of the text in Hermeneutics*. Washington D. C. 1998.

Archive of SID